ما يصفه الواصفون.

المرء ابن عادته

رأيت العادة تغلب على الإنسان فإذا حياته مجموعة من العادات، فمن اعتاد فعل الخير ولازمه صار له صفة ثابتة، فالذي يعوِّد نفسه البسمة عند لقاء الناس تنطبع عليه بعد مدة ويصعب عليه تركها، ومن عوَّد نفسه ذكر الله تعالى وداوم على تحريك شفتيه بذلك اعتاد هذا العمل وصار جزءاً من حياته حتى أن بعضهم كان يكثر من الذكر لله في كل وقت، ثم يلازمها فتصير له عادة كمس لحيته عند الحديث والإشارة بيده كثيرا، فوصيتي أن تعتاد الأفعال الجميلة والأخلاق الحميدة؛ لتكون لك صفات دائمة فحب المطالعة والنهم بالقراءة لا تتأتي إلا بعد تصبر عليها وإلزام للنفس بها ثم تصبح عادة لا تترك ويتنعم بها القارىء ويلتذ، فالمرء يلتزم ما تعود:

لكل امرىء من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا

وأجمل وقت لطبع عادات الفضائل هو زمن الصبا فعلى الوالد أن يعود ابنه كل جميل من القول والفعل حتى آداب الجلوس والمشي والكلام لترسخ عند هذا الابن ويشب عليها فإن السنوات السبع الأولى من حياة الإنسان هي حياة التكوين وسن القابلية والطفل في هذه السنوات كالصفحة البيضاء يكتب فيها الكاتب ما يشاء.

همم الصحابة

كان همُّ الصحابة الفهم عن الله عز وجل وعن رسوله ﷺ، ومعرفة دلالة الكلام، ومقصود النصوص، والعمل بها، فلم يكن أكبر همهم الحفظ، ولم يشتهر عندهم السرد للمحفوظات، وذكر عدد ما يحفظه الواحد منهم، والتباهي بالكم، بل جل عنايتهم بالفهم، وبذلك جاءت الآيات والأحاديث، فلما تأخر الزمن صارت أعداد أرقام المحفوظات هائلة، وضعف الفهم، وكثر سرد المحفوظات، وتسميع المتون وصارت مهنة، فأعظم منهج في العلم والعمل هو منهج الصحابة الأخيار، وهو عكوف القلب على النص وإخراج كنوزه بعين البصيرة.

أحكام عامة

غالب الفقهاء لهم اهتمام بالفتيا والقضاء، وهم أكثر مداخلة للسلطان من المحدِّثين، وغالب المحدثين فيهم زهد وورع وإعراض عن الدنيا ودأب في العلم، وهم أحسن الطوائف. وغالب النحاة فيهم فضول وتيه وعجب وكبر إلا ما رحم ربك. وغالب الفلاسفة فيهم قلة دين وشك في المعتقد، وشبهات وأوهام. وغالب الشعراء أهل هوى وانحراف وضعف إيمان. وغالب النساء قليلات دين، وغالب التجار أهل طمع وبخل وطول أمل. وغالب الأصدقاء عندهم قلة الوفاء وجحد الإحسان ونسيان المعروف:

كـــل هـــذا الخلـــق غـــر وأنـــا منهـــم فـــاتـــرك تفـــاصيـــل الجمـــل

السجن

من أراد أن يعرف ضيق السجن وشدة معاناة المسجون، فلينظر في قول يوسف عليه السلام ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أي عند الملك ليخرجه من الحبس. ولم يقلها ـ مع قوة صبره ـ إلا بعد شدة وألم وضيق، ولهول السجن ومرارته. وهدد به فرعون موسى عليه السلام فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وتهدد به الكفار محمداً ﷺ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ ومعني يثبتوك: يقيدوك ويحبسوك. ثم ذكر يوسف عليه السلام نعمة الله عليه فقال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾.

فائدة

اقتصر في عدد الصفحات عند التأليف فيما يقارب المائتين صفحة، فالقليل يندثر، والطويل يمل، وعليك بالابتكار والجدة، وحسن التعبير والتحرير، وقد قلت الهمم في قراءة المطولات، والوقت قصير.

الأدب الأعرج

الصحيح في دراسة الأدب أن يختار أجوده وأجمله وهو ما حسن لفظه وعظم تأثيره وسلم من غوائل الانحراف ومزالق الزيغ، وهو

ما يدعو إلى مكارم الأخلاق وينهى عن سفاسف الأمور، وقد درسنا النقائض بين جرير والفرزدق ولم ننتفع منه إلا ضياع الزمان واشتغال القلب بما يؤذي وأحياناً ندرس الغزل عند امرىء القيس ومجنون ليلى وعمر بن أبي ربيعة وهذه دعوة للتبذل والإسفاف، وكان من الحكمة أن يختار لنا ما لذ وطاب من القصائد العذاب المشرقة السائرة البديعة كقصيدة حسان عد منا خيلنا وقصيدة علو في الحياة وفي الممات وقصيدة السيف أصدق أنباءً من الكتب وقصيدة تفت فؤادك الأيام فتا، واعتزل ذكرى الأغاني والغزل، ولكل شيء إذا ما تم نقصان وحكم المنية في البرية جاري وكذا فليجل الخطب ونحو ذلك، أما ضياع العمر وراء الغزل والوله والعشق والغرام وذكر الحبيب والشتم المقذغ والهجو الفاحش والمدح الكاذب وتحصيل الحاصل: كفلان مدح قصر السلطان وفلان يذكر شعر حبيبته وعلان يمدح ناقته وآخر يصف الذئب إذ عداه، إذن فالأدب: خلق وذوق وجمال ودين وفضيلة وأصالة وحياء.

ضعف التدبير

رثيت لطالب أشغل نفسه ووقته في حفظ ألفية العراقي، وكد ذهنه كدا حتى أشغله ذلك عن القرآن والحديث، وهذا من ضعف التدبير، لأن من استغرق عمره في الوسائل فمتى يصل إلى المقاصد.

خير القرون

كان الصحابة عاكفين على القرآن تلاوة وعملاً، وقد نهى عمر

أبا موسى أن يشغل الناس في الكوفة بالرواية عن القرآن، وزجر عمر أيضاً عن كثرة الحديث، ليبقى الاهتمام بالكتاب العظيم، ثم جاء القرن الثاني فبدأت رواية الحديث بكثرة، ثم جاء القرن الثالث فبدأ التأليف في الجرح والتعديل والعلل، ثم جاء القرن الرابع فبسطت مسائل الخلاف الفقهية، ثم جاء القرن الخامس فأكثر الناس من المختصرات والمتون والشروح، ثم أخذت الأمة تتوسع في الفنون على حساب الاهتمام بالقرآن، فأصبح الفن الواحد فنوناً كثيرة، فالحديث يشمل المتون والرجال والغريب والمصطلح والشروح، فصار القلب مفرقاً في أودية العلوم، فانظر ما أعظم فقه الصحابة وعلمهم وإيمانهم كيف عرفوا المقصود وأقاموا الأصول وقدموا الأهم.

أصدقاء الرخاء

كل الناس في الرخاء أصدقاء وأعوان خاصة لمن كانت الدنيا مقبلة عليه بمنصب أو مال فتجدهم يخدمون صاحب المنصب والمال ولو لم يجدوا عنده نفعاً على أمل أن ينفعهم أو يتزينوا بصحبته، لكن إذا قلبت له الدنيا ظهر المجن تنكر له أصحابه ونسيه أحبابه. والواجب عدم الركون إلى الناس مطلقا بل الركون إلى الله وحده، فإن الناس سحابة صيف وذباب طمع بل ربما كانوا أعواناً للمصيبة بالشماتة والتشفي وكل منهم إنما يريدون غرضهم منك فإذا وجدوه طاروا عنك إلا أناس يعدون على الأصابع وقليل ما هم، يقول الحريري موصياً ابنه:

لا تغتر ببني الزمان ولا تقل عند الشدائد لي أخ وحميم
جربتهم فإذ المعاقر عاقر والآل آل والحميم حميم

والمعاقر هو الذي يسمر معك والآل الأولى هي القرابة والثانية السراب والحميم الأول الصديق الصاحب والحميم الثاني الماء الحار المؤذي.

عبيد المال

عرفنا تاجراً كبيراً كان أبخل الناس بماله وأحرصهم عليه وأطمعهم في جمعه مع سوء خلق حتى إنه يحاسب عماله على الشيء التافه الحقير ويقتر على أهله وقد أصيب بالشلل فكان يجلس أمام متجر له في عربية فينهر السائل ويبخل برد السلام مع كبر زائد، ثم سافر للعلاج فمات فجأة غريباً عن أهله وقد حدثنا رجل أمين صادق أنهم شروا له كفناً. ولم ينفعه ماله بل سوف يحاسب عليه درهماً درهماً ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾. وعرفت حارسا في مسجد بلغ السبعين من عمره ولم يتزوج وليس له قرابة وقد عمل قرابة ثلاثين سنة يجمع رواتبه ولا يصرف ريالا واحداً ويسأل الناس وكان لا يشتري لحماً ولا فاكهة ويجمع من الثياب والغتر التي تعطى له أكواماً ولا يلبس إلا ممزقاً ولا يأكل إلا خبزاً جافاً إلا إذا أرسل له طعام وأخبرني أحدهم أن عند هذا الرجل مبلغاً ضخماً في البنك وكان لا يزكي وكان إذا انتهى من الحراسة ذهب إلى السوق يجمع الكراتين الفارغة ويبيعها. ومن التجار من حرم أبناءه ما أباح الله لهم من متعة وكان ثريًّا مرموقا، فرفض أن

يشتري لأبنائه سيارات وكان له أخوات متزوجات فقيرات لم يلتفت لهن ولما مات حل موته على أهله وأبنائه كالبشرى وأراحهم الله منه. وهذه القصص ليست من نسج الخيال فنعوذ بالله من البخل وفتنة المال:

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ما فاته وفضول العيش أشغال

الغزالي

من أحسن كتب الإمام محمد الغزالي المعاصر، كتاب (جدد حياتك) لأنه دعمه بالنصوص والأمثلة. ولي كتاب: (لا تحزن) أحسب أني جمعت فيه كل ما دار في فلك هذا الموضوع فليراجع.

فتنة المرأة

على العاقل أن يحذر فتنة المرأة وإغراءها وليجتهد في حفظ دينه فقد صحّ عنه ﷺ أنه قال: «ما تركت بعدي فتنة أشد على الرجال من النساء» فعلى المسلم غض بصره والإعراض عن الصور والمشاهد الفاتنة مع عدم الاسترسال مع المرأة الأجنبية في الكلام وإن اضطر إلى ذلك فبقدر الحاجة بالمعروف وليكثر من الدعاء وعليه أن يشغل نفسه بعمل نافع مفيد مع الزواج وليعلم أن أكثر سقوط العظماء جاء عن طريق المرأة وكان دهاة الأمم إذا أرادوا إسقاط عدو لهم جاءوه من طريق المرأة فإنها مصيدة.

ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، وقد عرفنا من فتنته امرأة وهو في الستين من عمره وزيادة.. فوجدنا من اهتدى ثم ترك بسبب المرأة، وسمعنا بمن قتل غيره بسبب المرأة، نسأل الله العافية والسلامة ومنهم من كفر وتنصر بسبب امرأة كما رواه ابن كثير في البداية والنهاية.

مقدمة ابن خلدون

وقفت مليًا مع هذه المقدمة الذائعة الرائعة فوجدت روعةً في البيان وحسن استقراء للتأريخ وسبراً للحوادث من رجل تقلبت به الأيام وصارع النكبات واختلف عليه الليل والنهار فمقدمته فقه للتأريخ وخلاصة لأيام الملوك والدول. وتكرار قراءة مثل هذه المقدمة يمنح القارىء ملكة واعية ناقدة فاحصة والعجب أن تاريخه ما يقارب عشر مجلدات كاد أن يُنسى وعاشت هذه المقدمة وشرّقت وغرّبت حتى حللها علماء غربيون وشرقيّون وأجريت عليها دراسات في جامعات أمريكا وبريطانيا وفرنسا، والملاحظ أنك تعود إلى هذه المقدمة فتجدها غضة طرية لما فيها من دقة النظر وسمو العرض وجمال الاستنتاج وخلاصة التجارب فليعلم طالب العلم أن التأليف ليس بالكثرة ولا بالتجميع والنقل البحت بل هو الإضافة والاستنباط والجدّة والفقه في المنقول والمعقول فيا لهذه المقدمة من كتاب سار مسير الشمس وخلد خلود الحقيقة.

تـأمــلات

لاحظت في الناس انصرافاً مذهلاً عن الدين، فغالبهم غارقون في مباهج الحياة ومفاتنها، أطالع في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام فما هي إلا الكرة والفن والسينما والمال والسياسة، أنظر إلى الشارع فإذا هم يلهثون وراء رغباتهم، الأسواق تضج بكل جديد ومغري، المجالس حديثها عن المال والمتعة واللهو، فما عليك إلا بخاصة نفسك، فقد كدت أصاب بإحباط شديد ممّا رأيت من الانصراف والإعراض والصدود.. وأنا منهم، وأستغفر الله.

فـائـدة

إذا أتعبك الحفظ فاتركه تماماً وعليك بفهم ما تقرأ والعمل به، فإن مغالبة الطبع ومعاكسة النفس لا فائدة منه.

ونيسِّرك لليُسرى

الرسول ﷺ بعث بالحنيفية السمحة ونُهي عن التنطّع والتعمق والتشديد على النفس وقد رأيت مشدداً على نفسه وأهله وإخوانه وجيرانه فأصبح بعد التزامه ثقيل الظل جهم المحيّا فظًّا غليظ القلب، وما أدري من أين أخذ هذه الأخلاق؟ والقرآن والسنة يدعوان إلى حسن الخلق ولطيف العشرة وجميل الخطاب ولكنه عكس الأمور وقلَّب المسألة فتبسّمه نادر وقاموسه مليء بالنقد والسب والتشفّي وهيئته مبعثرة شعثة وكان المفروض فيه أن يكون بعد تديّنه أحسن الناس خلقاً

وأجملهم هيئة وألطفهم عشرة، فليت هؤلاء قرءوا سيرة الرسول ﷺ واتبعوه ليسعدوا ويُسعدوا غيرهم فقد كان ﷺ يمزح مع أهله ويداعب الأطفال ويلاطف الناس ويتحمل أذاهم وهو الأسوة الحسنة والمعصوم من الهوى والشيطان فدعونا من فلان وفلان من أهل الزهد والنسك والتصوّف وهلمّوا إلى الرحمة المهداه ﷺ.

إلى متى هذا التحصيل؟!

بعض العلماء كبر سنه ورقّ عظمه ولم ينشر علمه لا تدريساً ولا فتيا ولا وعظاً ولا خطابة ولا تأليفاً، بل لا يزال يطالع الكتب ويحفظ ما شاء، وقد حجب نفسه عن نفع الناس، أفلا يعلم أن زكاة العلم تعليمه ونشره، وأن تعلمه وسيلة فحسب للعمل به وتعليمه الناس وأنَّ معلم الناس الخير تستغفر له النملة في جحرها والحوت في الماء، لماذا هذا الكتمان للعلم والبخل بالمعرفة، وما هذا الدأب في التحصيل مع البخل بالبذل حتى أنك لو جلست معه لأغرب عليك بأسماء كتب لم تسمع بها أنت ولا آباؤك الأولون وعنده من إدمان المطالعة ما يفوق الوصف ونحن نقول له ما هي الثمرة ومتى الإفادة والنفع بالعلم.

لا تمدح نفسك ولا تذمّها

بعضنا يشبه العجم في ذم نفسه وفي تواضعه المكشوف فيقول مثلاً العبد الفقير أحقر عباد الله والعبد المسكين المذنب المقصّر المخطىء أو خادم العلم والعلماء أفقر عباد الله وهذا لا داعي له

ولم يسبق به العمل من السلف الصالح، ويقابلهم قوم يمدحون أنفسهم إما تصريحاً أو تلميحاً فيقول أحدهم ولي في هذا الباب بحوث وكتب وقد حضر درسي جموع غفيرة وقد عجب الناس والحمد لله من حفظي ونحو هذا الكلام وهذا لا داعي له أيضاً وضرره أكثر من نفعه بل قدم نفسك باسمك مجرداً عن المدح والذَّم وألق عنك ألقاب الثناء والرياء ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ وإنما أنت بهذه الألقاب والأوصاف مدحاً أو ذمًّا في عصور البعد عن الدين ومشابهة الأعاجم وقلة الورع والتنافس على الوظائف، وعمر وعثمان وعلي عرفوا بأسمائهم مجردة من مدح أو ذم أضافوه هم لها، بل الله زكاهم والرسول ﷺ ربّاهم والأمة قبلتهم والقلوب أحبتهم والتأريخ شهد لهم.

أسماء ما أنزل الله بها من سلطان

لم يكن عند الصحابة ألقاب فخمة، ولا إضافات أوصاف باذخة، لأن الله قد أغناهم بما عندهم من صحة إيمان، وجلالة خلق، وعظيم سجايا عن تلك الشارات والألقاب التي ما أنزل الله بها من سلطان، فالصحابة هم المعنى وغيرهم اللفظ، وهم اللب وسواهم القشر، وهم القلب ومن بعدهم القالب. فلما ضعفت صفات النبل في المتأخرين وسقم النبوغ تشبهوا بالعجم في الألقاب، فهذا شمس الدين، وذاك شمس الأئمة، والثالث درة العصر، وفريد الدهر، والرابع حافظ الدنيا وعلامة المعمورة، وأستاذ الأساتذة، وسواه حجة الإسلام، وإمام

الأئمة، وخاتمة الحفاظ، إلى غير ذلك من التهور الوصفي، والتبذير الشنيع في المدائح على حساب المعاني والحقائق.

دعـــاء

اللهم إنا نعوذ بك من آفات التصنع ومغبة الرياء وجمع الكِبْر، ونعوذ بك من خسة البخل ورذيلة التبذير، ومهانة الجبن وصلف التهور، ومذلة الفقر، وبطر الغنى، ونعوذ بك من سَقَط القول وبلادة الحصر، ونعوذ بك من لؤم النفس، وشح القلب، وشر خائنة الأعين وما تخفي الصدور، اللهم نق السريرة من النفاق، والبصيرة من الزيغ، والقلب من الانحراف، اللهم طهر الباطن بالتقوى، والظاهر بالصلاح، اللهم اهدِ القلب، وسدد اللسان، وأصلح الجوارح، نشكرك على النعمة، ونستغفرك من الخطيئة، ونشكو إليك فقرنا، ونعترف بتقصيرنا، نسألك رضى بالقضاء، واتباعاً للشرع وعملاً بالسنة، ونصرة للحق، وحبًّا للفضيلة، ورحمة بالمسلمين، اللهم لا تنسنا أمرك فنأمن مكرك، اللهم أفرغ علينا صبراً حتى لا نجزع من مصيبة، وألهمنا شكراً حتى لا نكفر نعمة، وأعطنا حكمة حتى لا نضل عن الصواب.

أمسك عليك لسانك

كررت هذا المعنى كثيراً لأنني رأيت في حياتي أن اللسان أضر شيء على الإنسان، فكم من رجل حبس في كلمة وآخر جلد لأجل عبارة وثالث فقد رأسه وسال دمه من أجل جملة، هذا في الدنيا،

أما في الآخرة فيكفيك حديث معاذ: «وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» فاحذر لسانك! ولا تتكلم إلا بخير ولا تتعرض لأذية سلطان أو عالم أو داعية أو أي مسلم فإنك سوف تدفع الثمن إما هنا وإلا هناك يوم العرض الأكبر، وتفكر في كلامك قبل أن تنطق به فإنه إذا خرج منك لن تستطيع إرجاعه أو إصلاحه واجعل الناس لك لا عليك وقد كثر الغش وانتشر الحسد وزاد الطمع فأنقذ نفسك من رق كلمة غير نافعة قد تكون سبب كدرك العاجل وعذابك الآجل وانظر لأحمد بن حنبل مع تقواه وورعه ونسكه كان إذا جلس مجلساً قال: اللهم سلِّم سلِّم. فاطلب من ربك السلامة، فإن الهالكين أكثر من الناجين.

كتب لا أنصح بقراءتها

لا أنصح بقراءة حلية الأولياء لأبي نعيم، وصفة الصفوة لابن الجوزي، وقوت القلوب لأبي طالب المكي، وإحياء علوم الدين للغزالي، لأن فيها مبالغات لعبّاد ليسوا علماء، وفيها شطحات صوفية، وتكلفات ليست من دين الفطرة، فبعض العباد لا ينام الليل، وآخر لا يأكل الرطب، وثالث يصلي في اليوم أربعمائة ركعة، وآخر يختم القرآن في اليوم مرتين، لماذا يا قوم لا نكتفي بالسنة، ونتعلم مع القرآن الأحاديث الصحيحة، ونترك بنيات الطريق، يقول صاحب المنهج: «من رغب عن سنتي فليس مني».

صلاة الفجر

معيار صلاح الناس وقيامهم بالدين صلاة الفجر جماعة لأنها في وقت راحة بعد سهر، وإذا أردت أن تعرف الناس في حيِّك فراقبهم في صلاة الفجر، ومما رأيناه وعشناه تخلف الكثير عن صلاة الفجر مع عدم المبالاة والندم على ما حصل وما ذاك إلا لموت القلوب، وقضية دعوى التدين والتقوى سهلة لكن العبرة بالعمل والتطبيق فإذا رأيت الرجل مقيماً للصلوات الخمس جماعة ورعاً في منطقه خائفاً من ربه نادماً على خطئه فهذا الذي يرجى له الخير ويبشر به أما المقصر في الصلوات المعجب بنفسه الغافل عن تقصيره فدعواه مردودة عليه ومحبته داحضة وهو من المفلسين، وقد رأينا من يظهر التدين والصلاح فإذا حانت صلاة الفجر خذله شيطانه وهواه ونفسه الأمَّارة بالسوء عن حضورها جماعة فغبن في صفقته وخسر ثقة إخوانه المؤمنين، ولا تمدح لنا أحداً ولا تزكي لنا عبداً بل أعماله تمدحه وأخلاقه تزكيه لأننا مللنا من الثناء على أناس تطبيق الإسلام عندهم باللسان ولكن إذا حصحص الحق في حضور صلاة وصدق في قوله ووفاء بوعد وقيام بواجب فإذا الخذلان والفشل والرسوب ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾.

رأي الشيخ عبد الرزاق

يقول الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله تعالى، لو كان لي من

الأمر شيء لأحرقت كل كتاب ألف إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا يتعجل متعجل لإنكار هذه الكلمة، بل عليه أن يدرسها وأن يقف عندها، وأنالا زلت أتأملها، لأنها صدرت من عالم يقال: إنه من أعقل العلماء، وقد نسب إلى الإمام أحمد أنه أنكر تأليف الكتب في عهده، فكيف لو رأى عهدنا. وسأفصل الحديث عن ذلك ـ بمشيئة الله ـ في موضوع لاحق.

المجد الخالد

ذهبت الدنيا وأهلها وبقي العلم وأهله، فنيت الجيوش وبادت الدول وبقيت كتب العلماء تروي مجدهم أبد الدهر، انظر إلى شيخ الإسلام ابن تيمية وتراثه الخالد الذي هو أنفع للناس من تراث دولة بني أمية وبني العباس والدول التركية، كلامه يقرأ في كل بيت، فتاواه حية في مجالس العلماء، كتبه تزين المكتبات حتى في عصر الإنترنت يدخل اسمه من أوسع الأبواب ومثله كثير من علماء الإسلام فالمجد الخالد إنما هو في اتباع الكتاب والسنة والتفقه في الدين أما الحطام والكسور والدور فهي لهو زائل وعرض مضمحل، فاجتهد في تعلم العلم النافع واسأل أهله واجلس معهم وطالع كتبهم فإن من أحب القوم حشر معهم، وانظر إلى مجد أحمد بن حنبل ومكانته في قلوب الأمة جيلا بعد جيل وقارنه بملوك عصره المعتصم والواثق والمتوكل تجد البون الشاسع مع العلم أن أحمد بن حنبل عاش فقيراً في بيت من طين لا يملك إلا قوت يومه وهؤلاء الملوك كانت جيوشهم تسد الأفق

عندهم خدم لكن ذهب ذاك كله أدراج الرياح:

كتب الموت على الكل فكم فل من جيش وأفنى من دول

فيا من عنده قوت يومه ومصحفه مع رياض الصالحين وبلوغ المرام عرفت فالزم واعمل بما علمت فإنك في مجد خالد وعيش هنيء.

عش زمناً بلا قراءة

عش زمناً بلا قراءة ولا مطالعة، متأملا، متفكراً، متدبراً، لتظهر لك بعض الأفكار، وينضج ما عندك من المقروء، وهذا وقت هضم للمعلومة كالصيام للمعدة، والتفكر مدرسة العباقرة.

آمنت أن الحب أعمى

في الحديث: (حبك الشيء يعمي ويصم) وقد آمنت لمارأيت وسمعت وعشت، تجد من يحب عالماً ويقبل كل ما يقوله ويصحح كل خطأ له ويلتمس له كل عذر، فكأنه عنده معصوم لا ينطق عن الهوى وتجد من أحب شاعراً فافتتن بشعره، فقصائده ولو كانت قطعاً من الثلج تحف من الماس وحبات من اللؤلؤ، وتجد من أحب امرأة وعشقها كأنه عابد صنم يهيم بها، ومنهم من مات في حبها، فعلمت أن الحب لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إذا تمكن، فخطايا الحبيب حسنات وجرحه بلسم:

إن كان سركم ما قال حاسدنا ما لجرح إذا أرضاكم ألم

وغلطة الحبيب لها تأويل وإساءته لها وجه آخر، وقليل إحسانه كثير مبارك فيه:

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

هذا هو طالب يحب شيخه فيصفه بالحفظ فإذا هو علي بن المديني. فإن حفظ شيخه الأربعين النووية نسب له حفظ الكتب الستة بأسانيدها ومتونها، وإن قرأ زاد المستقنع أضاف إليه قراءة المغني خمس مرات من كيسه ثم يصف لك فهمه وزهده وورعه لأنه يتكلم بلسان المحب الهائم. وبالمقابل فالبغض قاض جائر وسلطانه ظالم يحرق حسنات من أبغضه، مناقبه عنده مثالب وصدقه خداع وتملق وحسن خلقه نفاق ودينه تستر وغناه غش وعلمه قعقعة:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

فيا عباد الله! العدل في الحب والبغض والرضا والغضب ونعوذ بالله من الهوى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

تجربة

قرأت مئات من كتب الفكر ودخلت مثلما خرجت، كلام بارد في الغالب، وإنشاء ولا دليل ولا تحليل، بل هي أقرب بمنهج علماء الكلام، ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.